محمد رسول الله

بقلم
الدكتور: عبد الحليم محمود
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

(٢)

تحدث القرآن عن معجزات حسية كثيرة ، أتى بها الرسل السابقون وخصوصا سيدنا موسى وسيدنا عيسى وإذا كان وجد من يشك فى هذه المعجزات فهو على الخصوص من ملاحدة أوربا فى العصر الحاضر ، أما المسلمون فإنهم يؤمنون بها .. وتحدثت كتب السيرة النبوية عن معجزات حسية كثيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبار كتب السيرة هذه لاتقل فى ثبوتها وصحتها - إذا صرفنا النظر عن القرآن - عن الروايات التى تثبت معجزات حسية للرسل السابقين ولكننا لانريد هنا التحدث عن هذه المعجزات الحسية ، التى لرسولنا صلى الله عليه وسلم :

فحياة الرسول صلى الله عليه وسلم بين قومه الذين يعرفونه كما يعرفون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم فيها غنية لمن أراد الاستدلال على رسالته الحقة وهذه الحياة فرضت على قريش تسميته صلى الله عليه وسلم بالأمين ، كان أمينا فى قوله ، أمينا فى عمله ، أمينا على سر أصدقائه ، أمينا فيما يأتى ومايدع ومن مظاهر هذه الأمانة أنه لما جاء الوحى تحدث به فتفاءلت خديجة ، وبشر ورقة ، وآمن أبو بكر

وهاهو ذا الوحى ينقطع ! .. وتحزن خديجة حينما يصارحها الرسول بانقطاعه ويضطرب فؤادها .

ويتساءل ورقة ، ويستفسر أبو بكر فى اشفاق فلا يخادع الرسول ولا يتحدث بغير الحقيقة ... ويقولها فى صراحة وفى ألم : إن الوحى قد انقطع .

وتطول فترة انقطاع الوحى .. وفى كل يوم تتلهف خديجة على خبر يطمئنها ويترقب ورقة ، ويرجو أبو بكر .. ولكن الرسول لايقول غير الحق . ويشرق النهار فتشرق معه آمال الرسول . وتشرق معه آمال خديجة ، وينتظر ورقة ، ويتفاءل أبو بكر .

ويأتى الرسول من معتكفه وفى وجهه الصراحة والتواضع ، وفى عينيه الأمل والرجاء .. ويعلنها من جديد : لقد انقطع الوحى ثم ينزل الوحى من جديد مرتفعا بالرسول إلى آفاق من الرضا الإلهى « والضحى والليل إذا سجى ، ماودعك ربك وماقلى » ويؤمر الرسول بالإنذار « ياأيها المدثر قم فأنذر »

وتنفجر شآبيب الحسد والحقد فى أنفس القرشيين المنافسين لبنى هاشم ، يقول أبو جهل : « تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ! والله لانؤمن به أبدا ولا نصدقه »

وتكون العداوة المريرة ويكون الصراع الذى لا هوادة فيه ، فلا تلين للرسول قناة .. ويعلنها مدوية واضحة «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ماتركته » وإذا لم يجد الوعيد فقد يجدى الوعد . ويذهب رسول قريش إلى محمد قائلا : «إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت تريد تشريفا سودناك علينا ، فلا نقطع أمرا دونك . وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا (تابعا من الجن) تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ » .. ويكون الرد :

« ألم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه . بل هو الحق من ربك . . » سورة السجدة » . ويرى أعداء الله ألامناص من

العوده إلى الشدة بصورة أعنف ، فاتفقوا على مقاطعة محمد وآله ومن يواليه وتعاقدوا « على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم » . وأكثر من ذلك : اضطروهم إلى مغادرة مكة والاحتماء فى شعب من شعاب الجبل بظاهرها . وأخذ بنو هاشم يعانون من ألوان الحرمان مالا تكاد النفس تصبر عليه .. ويرى رسول الله هذا البؤس العام ، وهذا الجوع الكافر ، وهؤلاء الأطفال ومرضعاتهم يتضورون جوعا وهؤلاء الشيوخ لايكادون يقوون على السير ... فتأخذه الرحمة ، وتدمع عيناه ، ويعتصر قلبه حزنا ولكن إيمانه بالحق لايتزعزع ، ويستمر يدعو قومه ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا مناديا بأمر الله ، لايتقى فيه أحدا من الناس .

ويتلمس رسول الله المعونة والنصر من كل إنسان يتوسم فيه الخير .

ويذهب إلى الطائف سيرا على قدميه مستخفيا ، ويعرض دعوة الحق على سادتها فلا يجد إلا سخرية مريرة يقول له أحدهم فى أسلوب تهكمى « سوفسطائى : « والله لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ماينبغى أن أكلمك » . . . ويفارقهم رسول الله فلا يكونون نبلاء فى توديعه بل « اغروا به سفاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة »

ويجلس رسول الله منهوك القوى . مضعضع الأعضاء ، دامى القدمين ، فيتجه إلى الله ويدعو بهذا الدعاء الرائع الذى لانجد فى الآداب العالمية دعاء يسمو إلى روعته وجماله « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولاحول ولا قوة إلا بك » صلى الله عليه وسلم .